سلطة الشاعر والسلطة السياسية
في بائية ابن زيدون ومعارضة الأعمى التطيلي لها

أحمد محمد عبد القوي التاعب(*)

الملخص

يتناول هذا البحث **ثنائية سلطة الشاعر والسلطة السياسية** في بائية ابن زيدون (مودة وعتاب)، ومعارضة الأعمى التطيلي لها، من خلال المنهج الثقافي؛ لأن القراءة الثقافية قراءة تسعى إلى استنطاق النصوص، وقراءة ما خلف الأبيات من واقع ثقافي واجتماعي وسياسي يقف كخلفية ثقافية كان لها أثر كبير في انتاج النص الأدبي، فالقراءة الثقافية لا تتعامل مع النص بوصفه نصا أدبيا فحسب، ولكنها تتعامل معه كحادثة ثقافية تحمل أنساقا مضمرة تحتاج لقراءة عميقة لكشف الكم الهائل من التراكمات الثقافية التي تقف وراء تلك الأنساق، وفي هذا البحث يدرس الباحث ماهية العلاقة القائمة بين شاعر البلاط وممدوحه، وهل كان الشاعر فيها أداة في يد السلطة السياسية لتمكين سلطانها السياسي فحسب، أم أنه كان له دور إيجابي في تلك العلاقة، فيحاول الباحث في هذا البحث الكشف عن الأنساق المضمرة التي تختبئ خلف عباءة الجمالي / المدح، موضحا سلطة الشاعر الأدبية التي تقف في وجه السلطة السياسية وتحد من هيمنتها.

الكلمات المفتاحية :
(الثنائيات ، الضدية ، السلطة ، المعارضة ، ابن زيدون ، التطيلي)

(*) معيد بقسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب ، جامعة عين شمس

Poet`s Authority And The political Authority In The baeya poem of Ibn Zaidoun, and it`s literary imitation of Al-a`ma Alttily

Ahmed Mohmmed Abd Al-Awi

Abstract

This research deals with the doublicity of Poet`s Authority, And The political Authority In The baeya poem of Ibn Zaidoun, (Intimacy, and blame) and its literary imitation of Al-a`ma Alttily using the cultural approach.

That is way the cultural reading is a good method to reveal the meanings of the literary works, and it`s cultural, social, political background. Which has a basic role in producing the meaning of the text?

So this research is looking for determining the essence of the relation between the poets of royal court, and his praised king man

And it discusses if the poet was just a tool in the hands of the political Authority to support its Authority, or the poet had his possive role in the relation.

So this research tries to uncover the hidden systems that inserted behind the Aesthetic form.

And aims to show the poet`s Authority facing the political Authority and lts supremacy.

المقدمة

لقد استطاع ابن زيدون أن يستعمل الأضداد في شعره، فأعاد تشكيلها بفعل طاقة اللغة، وولد منها أنساقا متحركة قادرة على استيعاب تصوراته ومشاعره تجاه المحبوبة وتجاه السلطة في مجتمعه ، فقد وظف امكاناته المعرفية والثقافية لتشكيل عوالم الصراع وإبرازها فنيا داخل العمل الشعري، فقد كانت حياته مليئة بالصراعات سواء صراعه مع ولادة محبوبته أو صراعه مع منافسيه في الحب أو السياسة، أو صراعه مع السلطة السياسية نفسها، وفي بائية ابن زيدون يتجلى صراع الشاعر مع السلطة السياسية، وهذا ما نجده أيضا في معارضة الأعمى التطيلي لهذه القصيدة ، ولقد اختار الباحث المنهج الثقافي لهذه الدراسة ؛ لأن القراءة الثقافية قادرة على إبراز صراع الأضداد بصورة جلية، فهي لا تكتفي بالجمالي/المدح فحسب، وإنما تسعى للكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة التي تتخفى خلف عباءة الجمالي.

(١)

إن مصطلح السلطة في التراث العربي يدور حول معنى القهر والتسلط والتحكم، وهذا ما تشير إليه المادة اللغوية "سلط " في المعاجم العربية: سلط: السلاطة: القهر، وقد سلّط الله فتسلّط عليهم، والاسم سُلطة بالضم...، والسُّلطان والسُّلطان: قدرة الملك (لسان العرب، مادة: سلط)، ويذهب أبو هلال العسكري إلى أن السلطة ذات طابع شمولي وأنها عندما توضع في يد السلطان فإنها تعني " قوة اليد في القهر للجمهور الأعظم وللجماعة اليسيرة أيضا "(العسكري، ١٥٥)، فالسلطة لها أشكال متنوعة في المجتمع الإنساني "وتتخذ هذه السلطة شكلها الخاص بها من شكل النظام الإنساني فيها، وكل من الطرفين المسيطِر والمسيطَر عليه يتدخل في صياغة نوع السلطة السائدة بينهما ، وتحديد شكلها " (الصديق ،٣١).

إذا نظرنا إلى علاقة الشاعر بالحاكم / السلطة السياسية منذ العصر الجاهلي حتى يومنا هذا نلاحظ أنها علاقة إما قائمة على الطاعة والخضوع لهذه السلطة السياسية، وإعلان ولائه لها من خلال مديحه، وإما أن تكون قائمة على العصيان، ومن ثم يقوم الشاعر بالسعي وراء السلطة السياسية؛ لتقويض دعائمها واسقاطها من خلال هجائه لها .

فالمدح يقوم على ثقافة المنفعة، فالشاعر يعلم يقينا أن غاية مدحه للسلطة السياسية هو مصلحته الشخصية أولا، لا مصلحة السلطة السياسية، والسلطة السياسية أيضا في استماعها للمديح من الشعراء، وتشجيعها لهم، تعلم أن هذا المديح يصب في مصلحتها، لذلك فهي تجزي الشاعر على مدحه، وهو ينتظر بشوق ثمرة هذا المدح ويرجو إيجابياته.

فإذا كانت السلطة السياسية تملك في الحقيقة المال والقوة والنفوذ، فإن الشاعر يملك قوة الكلمة/السلطة الأدبية، ولذلك فإن السلطة السياسية تسعى إلى توظيف ثروتها في شراء فكر الشاعر/مديحه/منتجه الأدبي الثقافي، ومن ثم تحويل هذا المنتج

الثقافي إلى آلة نفعية غايتها الترويج للمؤسسة الحاكمة ، ولذلك نجد "القصيدة المدحية من أهم أشكال القصيدة العربية الكلاسيكية قبل الإسلام إذ كان بعض شعراء الجاهلية يمدحون بها ملوك العرب في مملكتي الحيرة والغساسنة على حدود بلاد فارس وبلاد الروم" (ستيتكفيتش ، ٢٥)

" فلابد في قصيدة المديح من وجود الشاعر المحتاج الذي ينظمها، ووجود ملوك يرغبون في تخليد مآثرهم، وأخيرا وجود نظام اجتماعي وأيديولوجي يسمح بهذه العلاقات ، وهذا يعطي فكرة عن طبيعة العلاقات في المجتمع القبلي التي تقوم على ثقافة المصلحة أو المنفعة، فثقافة الطمع عند الشاعر تلتقي مع ثقافة حب البقاء والخلود التاريخي عند الممدوح، فتتداخل الثقافتان في علاقة براجماتية مؤقتة، ويكون التلازم واضحا وحتميا بين أطراف العلاقة الثلاثة (المجتمع الذي يتلقى هذا النوع من الشعر ، والممدوح، والشاعر)، ولو سقط أحد هذه الأطراف الثلاثة ما كان شعر المديح"(يوسف،٢٧)

وبهذا فإن شعر المديح نتج عن جملة من الاحتياجات ، حاجة الممدوح للخلود التاريخي ، وحاجة الشاعر المادية ، داخل نظام ثقافي اجتماعي وقبلي، وبالتالي فإن شعر المديح هو نتيجة لنظام ثقافي له خصوصيته، ولا يمكن بأي حال فصل هذا النوع من الشعر عن النظام الثقافي الذي أنتجه. (يوسف، ٢٨)

فإذا انتقلنا إلى العصر الإسلامي نجد أن قصيدة المدح أصبحت الوسيلة الأساسية للتعبير عن الولاء السياسي والديني، وقد اتُّخِذت قصيدة المدح الجاهلية نموذجا ومعيارا تقاس عليه القصيدة العربية الإسلامية، فالقصيدة المدحية أصبحت في هذا العصر تشير إلى الشرعية السياسية والدينية، وأصبحت علامة على ولاء الشاعر لهذه السلطة التي يمدحها .

وكذلك كان الحال في العصر الأموي والعباسي حيث كثرت الأحزاب والفرق السياسية، وأصبح لكل حزب مؤيدوه من الشعراء، فإذا ما انتقلنا إلى الأندلس نجد أن القصيدة المدحية قد زادت أهميتها في عصر ملوك الطوائف خاصة، " فقد استحالت الأندلس بعد أن كانت كتلة واحدة إلى أشلاء ممزقة، ورقاع متناثرة، وولايات، ومدن متباعدة متخاصمة يسيطر على كل منها حاكم "(عنان، ٣)

فقد انهارت الخلافة الأموية على إثر انهيار الدولة العامرية عام ٣٩٩ه ، وتم إعلان سقوطها نهائيا عام ٤٢٢ه، وتفككت الأندلس إلى مجموعة من الممالك على كل مملكة ملك، وكل مملكة تزعم لنفسها الاستقلال والرياسة المطلقة، ولا تربطها بجاراتها أية رابطة إلا أن تكون المنافسة أو الحرب الأهلية في سبيل الغنم والتوسع، وهذا البحر الخضم من المنافسات والمنازعات والحروب هو قوام عصر الطوائف (السرجاني، ٣٢٢/١)

إن سقوط الخلافة الأموية نتج عنه وجود أزمة سلطة في تلك الحقبة، وعدم استقرار سياسي وعسكري، فكل مملكة من الممالك عليها حاكم يرى في نفسه أنه الأحق بأن يكون الوريث الشرعي للخلافة الأموية، وهذا الوضع السياسي أتاح للشاعر فرصة أن يلعب دورا خاصا في أجواء التحالفات السياسية والعسكرية المتقلبة بشكل مستمر، فتوجه بمدحه إلى أمراء تلك الممالك، مما أفسح المجال للتنافس الشرس بين الحكام على جذب الشعراء إلى بلاطهم، فكل أمير يرى أنه مؤهل لشغل منصب الحاكم العام / الخليفة، ولا يرضى بغير ذلك، ومن هنا جاءت فكرة الشرعية والتوسع على حساب الآخرين.

فالقصيدة المدحية في هذا العصر كانت بمثابة الاعتراف بأن هذه السلطة السياسية/الحاكم هو الوارث الشرعي للخلافة الأموية، فقد كان من المهم لكل حاكم أن يثبت شرعية حكمه، وخاصة في مواجهة مزاعم المنافسين له من حكام الممالك الإسلامية الأخرى، أو في مواجهة المنافس الأول والأخطر، وهو نصارى الشمال، وذلك من خلال قصيدة المدح؛ لأنها تشير إلى ولاء الشاعر للملك، وتأييده سياسيا، وتعطيه الأحقية في التوسع على حساب غيره، وفرض سلطانه وسيطرته على من حوله ، ولذلك كانت الملوك تتصارع على ضم أكثر الشعراء إلى بلاطها.

ويتضح مما سبق أن قصيدة المديح في هذا العصر كان لها أكثر من وظيفة :

أولا: تأكيد شرعية السلطة السياسية الممدوحة، والاعتراف بقوتها، وأنها الوارث الشرعي للخلافة الأموية، وبذلك يصبح حكمها وسلطانها بمثابة الحكم العربي الإسلامي الشرعي، وبالتالي من حقها أن توحد وتضم تحت رايتها جميع الممالك الأخرى؛ لتواجه العدو المسيحي.

ثانيا : تأكيد سلطة الشاعر وقوته وولائه السياسي، فالشاعر يستمد سلطته من خلال خضوعه للسلطة السياسية، وإضفاء الشرعية عليها، مما يجعل السلطة السياسية تقربه منها، وتمنحه مكانة مرموقة في بلاطها، كما أن هذا المديح في نفس الوقت يجعل للشاعر سلطة على السلطة السياسية، فإن غضبت السلطة السياسية عليه، وحرمته من نفوذه ومكانته، يقوم باستغلال سلطته الأدبية في تهديد تلك السلطة السياسية، مؤكدا لها أنها إن لم تكرمه وتعيد له مكانته سوف يسلب منها سلطانها وقوتها، وذلك من خلال مدح غيرها؛ لأن ذلك المدح للغير يعني سلب الشرعية / مصدر القوة منها، وإعطائها لغيرها، مما يؤدي إلى تهميش تلك السلطة وإضعاف مكانتها.

ثالثا: تعد وسيلة للحفاظ على الأيديولوجية العربية الإسلامية للحكم في مقابل توسعات المملكة النصرانية في الشمال على حساب الأراضي الإسلامية.

(٢)

كانت قرطبة من أشهر تلك الدويلات التي قامت في عصر ملوك الطوائف، فعندما سقطت الخلافة الأموية بدأت أنظار القرطبيين تتجه صوب الوزير أبي الحزم بن جهور ، المعروف برأيه، وحسن تدبيره ، وصلاح سيرته ، ليصبح رئيس الجماعة وكبير قرطبة ، يقول الفتح بن خاقان عنه :

" وبنو جهور أهل بيت وزارة ...، وأبو الحزم أمجدهم في المكرمات، وأنجدهم في الملمات ، ركب متون الفنون فراضها ، ووقع في بحور المحن فخاضها، منبسط غير منكمش ، لا طائش اللسان ولا رعش ...، واستولى على قرطبة ...، ودبرها بالجد والعزم وضبطها ضبطا أمَّن خائفها ، ورفع طارق تلك الفتنة وطائفها ، وخلا له الجو فطار ، واقتضى اللبانات والأوطار، فعادت له قرطبة إلى أكمل حالاتها ، وانجلى به نور استجلالها ، ولم تزل به مشرقة ، وغصون الأمل فيها مورقة إلى أن توفى سنة ٤٣٥هـ " (ابن خاقان،١٨١)

وفي تلك الفترة ظهر ابن زيدون على الساحة السياسية ، ولا تذكر المصادر دوره – بالتحديد – في الحوادث التي أدت إلى سقوط الدولة الأموية في قرطبة، وقيام أبي الحزم بأمور الحكم ، لكن المعروف عنه أنه لم يكن في معزل عن تلك الأحداث السياسية ، ومن الواضح من خلال شعره أنه كان يقف إلى جانب أبي الحزم مما حدا بالأخير إلى تقريبه واستخدامه عندما آلت إليه الأمور ، لكنه لم يسلم من المكائد والدسائس مما جعله يقع فريسة لهذه السلطة ، فسجن عام ٤٣١ه ، وقضى في سجنة مدة تزيد عن خمسمائة يوم ، ويهرب بعدها إلى سلطة مضادة يحتمي بها ، وهي سلطة بني عباد بإشبيلية ، لكنه يعود مرة أخرى ؛ ليعلن ولاءه لسلطان بني جهور ، ويعتذر لأبي الحزم، فيعفو عنه، ويقربه منه مرة أخرى ، ويجعله لسان بني جهور والمتحدث الرسمي للسلطة السياسية (ابن دحية ، ١٦٧).

وظل ابن زيدون كذلك في عهد أبي الوليد بن جهور ، ونال مكانة عظيمة لما كان بينه وبين الحاكم الجديد من صداقة قديمة ، ولذلك جعله أبو الوليد سفير السلطة ولسانها ، لكن ابن زيدون لم يسلم أيضا في عهد أبي الوليد من المكائد والدسائس ، مما جعله يخشى أن يصيبه من الابن ما أصابه من الأب من سجن وغربة وتشريد ، فاتجه إلى أميره يمدحه ، ويرجوه ، ويهنئه بعيد الفطر ، فيقول :

أما علمتْ أن الشفيعَ شبابُ فيقصرَ عن لوم المحب عتابُ

(ابن زيدون ، ٣٦٦)

إن هذه القصيدة تتكون من ثلاثة وتسعين بيتا ، يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام: الأول : النسيب (الأبيات ١ : ٢٨) ، الثاني : المدح والتهنئة بعيد الفطر (الأبيات ٢٩ : ٦٧) ، الثالث : فخر وعتاب (الأبيات ٦٨ : ٩٣) ، وهذا التقسيم يحيلنا إلى قصيدة المديح الجاهلية ، " فقد كان القدماء يجعلون قصيدة المديح أقساما ثلاثة :

مقدمة غزلية تسمى النسيب ، ثم وصف رحلة الشاعر في البيداء ، ويسمى الرحيل ، ثم المديح نفسه ، وقد التزم أصحاب الشعر القديم والمحدث صياغة مدائحهم على هذا الأسلوب ، وإن كانت تغلب عليهم الإطالة في القسم الأخير على حساب الأولين " (غومس ، ١٠٠)

لكن هذه البنية الثلاثية تغيرت مع مرور الوقت خاصة في العصر العباسي، فتحولت إلى بنية ثنائية متكونة من النسيب والمديح ، فتقول سوزان ستيتكيفتش : " كان الشكل المهيمن لقصيدة المدح في الحقبة العباسية على نحو متزايد البنية الثنائية المتكونة من النسيب والمديح ، على الرغم من أن هذا الشكل غالبا ما يشتمل على ما أسميه بقايا قسم الرحيل ، حيث نجد بيتا أو بيتين يوحيان بانتساب القصيدة إلى الشكل الثلاثي " (ستيتكفيتش ، ١٩٧)

إن اعتماد الشاعر على البنية الثلاثية لقصيدة المدح الكلاسيكية القديمة الجاهلية ، وإن اختفى قسم الرحيل ، هو بمثابة إعلان عن شرعية التقليد الشعري الذي يستند إليه ، تلك الشرعية التي توازيها شرعية الحاكم / السلطة السياسية ، وذلك لأن اعتماده على تلك البنية يبعث نوعا من التجانس مع الأعمال الشعرية المدحية الجاهلية ، وفي نفس الوقت ، يبعث نوعا من التجانس بينه وبين ممدوحه من جهة ، وبين الشعراء الآخرين وممدوحيهم من جهة أخرى ، فيقوي سلطته الفنية وسلطة الممدوح السياسية .

أما النسيب فيبدؤه الشاعر متسائلا : ألم تعلم هذه الغادة الحسناء أن شفيعي إليها الشباب ، وهو شفيع تغتفر له الهفوات ، فلا مبرر للوم أو العتاب ، فما قيمة الشباب الجميل إذا لم يجذب بفتنته الحسان ، وما قيمة الإخلاص في الحب إذا لم ينل عنه صاحبه أحسن الجزاء ، فيقول :

أما عَـلِـمَتْ أنَّ الشَّـفِـيـعَ شَبَابُ فَيقْصُر عـن لَـوم المُحبِّ عِتَابُ
عَـلَامَ الصِّبا غَـضٌّ يَـرِفُّ رُوَاوُهُ إذا عَنَّ من وصلِ الحِسَانِ ذَهَابُ؟
وفِيمَ الهَوى مَحضٌ يَشِفُّ صَفَاؤُه إذا لـم يَـكُـن منهن عنه ثَـوَابُ؟

(ابن زيدون ، ٣٦٦)

إن الابتداء بهذه المقدمة له أهمية كبيرة حيث إن غرض الشاعر منها استثارة مشاعر التعاطف معه ، ومن ثم الإشفاق عليه ، ومشاركته حالته الوجدانية، ولذلك ينتقل من تلك المقدمة إلى وصف تلك المحبوبة ، فقد كانت تسعفه بالوصال، فتنتحي عن حماها وتهجره ، مقبلة على الشاعر في شوق ولهفة، لكنها الآن تظن أن الفراق سيحول بينه وبين زيارتها ، وفاتها أن البعد يلهب الشوق، ويزيد اللهفة، ويشعل الرغبة في زيارتها ، فكل مجهود يبذل في سبيل الوصول إليها سهل وقليل، ولو قطع الشاعر الصحاري المجدبة على ظهر بعير أنحله السفر؛ لأن الهدف العظيم تهون في سبيله كل مشقة ، فيقول :

ومُسعِفَةٍ بالوصـــلِ إذ مَربَـعُ الحِمى لها كُلما قِظْـنَا الجَـنَابَ جَنَابُ
تَظُنُّ النَّوى تَعدُو الهوى عن مَزَارِها وَدَاعِي الهوى نحوَ البعيدِ مُجابُ
وقَلَّ لها نِضْوٌ بَرَى نَحضَهُ السُّـــرى وَيَهْمَاءٌ غُفْلُ الصَّحصَحَانِ تُجَابُ
إذا ما أحبَّ الرَّكبُ وجها مَضَوا لـــه فـهان علـيـهم أن تَـــخُـــبَّ رِكابُ

(ابن زيدون ، ٣٦٧)

ويصف محبوبته بالجمال، وأنها نشأت في قبيلة بدوية محافظة شديدة البأس، وشديدة الغيرة على نسائها، ولذلك فإن أهل المحبوبة يكثفون الحراسة والحماية حول نسائهم ، ويتوعدون بالموت لكل من يجرؤ على محاولة انتهاك حرمة نسائهم ، وهذا وصف يعكس طبيعة الرجل العربي/الفحل ، وثقافته الذكورية التي تقوم على الغيرة على النساء ، لكن الشاعر يتجاهل كل ذلك لشجاعته ، وشدة حبه لمحبوبته ، ويذهب لزيارتها ليلا ، فتخرج له المحبوبة متهادية تنساب خطواتها في رفق ولين، ويستمتعان بلقائهما حتى انبثق الصباح كالغرة البيضاء في سواد الظلام ، وولى الدجى كما يطير الغراب الأسود عن مجثمه، فيقول :

عَرُوبٌ ألاحَـــت مـن أعَـــاريـب حِلةٍ تَجَـاوَبُ فيـها بالصَّـهـيـلِ عِرابُ
غَيَارَى من الطيفِ المُعاودِ فِي الكَرى مُشيحُـون من رَجمِ الظُّنُونِ غِضَابُ
وماذا عليـهـا أن يُـسَـنِّي وَصـلَـهَا طِـعَانٌ فـإن لـم يُـغَـنِـنـا فَضِـرابُ
ألـم تـدرِ أنَّـا لا نَـرَاحُ لِـريـبـةٍ إذا لم يُـلَـمَّـعْ بالنَّجِـيـعِ خِضَابُ
ولا نَـنْـشَقُ العِطرَ الـنَّـمُومَ أريـجُهُ إذا لـم يُـشَـعْـشَـعْ بالعَـجَاجِ مَلابُ
وكـم رَاسَـلَ الغَيْـرانُ يُهدِي وَعِيدَه فما رَاعَـــهُ إلا الـطُّـــرُوقَ جَوَابُ
ولـم يَـثْـنِـنـا أنَّ الرَّبـابَ عَـقِـيلَـةٌ تَـسَـائَـدُ سَـعْـدٌ دُونَـهـا ورَبَـابُ
وأن رُكِـزَتْ حـول الخُـدُورِ أسِـنَّةٌ وَحَـفَّـتْ بِـقُـبِّ السَّابحاتِ قِبابُ
ولـو نَـذَرَ الحيَّانِ غِـبَّ السُّرَى بنا لَكَـرَّتْ عُظَـالـى أو لَعَـادَ كُلابُ
وليلـةَ وَافَـتْـنـا تَهَـادَى فَنَمْـتَـرِي أيسمُـو حَـبَـابٌ أو تَسِيبُ حُبابُ؟
يُـعَـذِبُـهـا عَـضُّ السِّـوَارِ بِمِعصَـمٍ أبَـانَ لـهـا أنَّ النَّـعِـيـمَ عَـذابُ
لأبْـرَحتُ من شَيـحَـانَ خُطَّ لِـثَـامُهُ إلـى خَـفِـرٍ ما خُـطَّ عـنـهُ نِـقَـابُ
ثَـوَى منهما ثِنـيَ النِّـجـادِ مُشَيَّعٌ نَـجِـيدٌ ومَيْلاءُ الوشـاحِ كَـعَـابُ
يُـعَـلِلُ مـن إغـريـضِ ثَغْـرٍ يَعُلُّه غَـريضٌ كماءِ المُزنِ وهو رُضابُ
إلى أن بـدت فـي دُهـمـةِ الأفقِ غُرَّةٌ ونَـفَّـرَ من جُـنْـحِ الظَـلامِ غرابُ

(ابن زيدون ، ٣٦٨)

وفي تخلص الشاعر من النسيب وانتقاله إلى المدح تظهر بعض جوانب الخلفية الثقافية للشاعر، فنجده على معرفة جيدة بعلم الفلك، حيث إنه يذكر أسماء بعض النجوم والكواكب، ويعلم صفة كل منها، فيقول: إن الجوزاء (برج في السماء) كادت أن تسقط عندما لاح الصباح ، فتخيل أن الشعري العبور (كوكب يعبر السماء

عرضا) جذبتها وردتها مرة أخرى، أي أن النجوم أوشكت أن تغيب عندما دنا الصباح ، وكأن الثريا (مجموعة كواكب متقاربة) حينما مالت إلى الغروب جبان يهم بالطعن ثم يتردد ، وكأن سهيلا (نجم مرتفع) في علوه راع للنجوم، وقد أزمع العودة بها إلى حظائرها ، وكأن الصباح طلب من الشمس قبسا من نار، فأعارته كوكب المشترى قبل بزوغها ، وذلك في قوله :

وقد كـــادتِ الجوزاءُ تَهوي فخِلتها ثَنَاها من الشِّعرَى العَبُورِجَنَابُ
كـــأن الثُّـــريَّـــا رايـــةٌ مُشْـرِعٌ لـها جبـــانٌ يريدُ الطعـــنَ ثم يَهابُ
كـــأن سُـــــهيلا في رَبـــاوَةِ أُفْـــقِـــهِ مُسِـيـــــمُ نُجُوم حانَ منه إيابُ
كـأن السُّـــــها فـانِـي الحُشاشةِ شَفَّهُ ضَنَـــى فـخـفـقـاتٌ مَـرةً ومَثَابُ
كأن الصَّباحَ استقبس الشَّمسَ نَارَها فجاءَ له من مُـشْـتـريهِ شِهابُ

(ابن زيدون ، ٣٧٢)

وفي البيت (رقم ٢٨) الذي يقول فيه :

كـأنَّ إيـــاةَ الشمسِ بِشْرُ ابن جهور إذا بَـذَلَ الأموالَ وهـــي رِغَـابُ

تظهر قدرة الشاعر الأدبية، فهذا البيت يقوم بوظيفة التخلص من النسيب إلى المديح ، وقد أحسن الشاعر التخلص من خلال قلبه التشبيه ، فقد شبه جمال الشمس وحسنها بوجه الأمير حينما يتهلل للجود بالأموال الكثيرة .

أما أبيات المدح والتهنئة بعيد الفطر (٢٩ : ٦٧)، فنجد الشاعر يؤكد فيها شرعية الحاكم ونفوذه، ويعيد تأكيد ولائه وخضوعه للسلطة السياسية، ولكي يثبت الشاعر شرعية الحاكم كان عليه أن يثبت له عدة صفات ، كان الكرم أولها، فيقول : إن الأمير حينما يتهلل وجهه نتوقع منه وفرة الهبات، ونرى فيه برقا ساطعا ، يتلوه سحابا هاطلا بأجزل العطاء للمحتاجين، وهذا المطر يعد من الصور الشعرية للخصوبة في الشعر العربي، وخاصة الشعر الجاهلي، حيث يسقي الأرض، فتنبت حياة جديدة تدين كلها لهذا المطر بالجميل، وكذلك حال الممدوح، فإن كرمه هذا يحيي المحتاجين، ويجعلهم يعيشون حياة جديدة، يدينون فيها بالولاء والخضوع لسلطة الأمير ، فيقول :

هـو الـبـشرُ شِمنا منهُ برقَ غَمَامةٍ لها باللَّهَا في المُعْتَفينَ مَصَابُ
جَوَادٌ متى استعجلتَ أُولـــى هِباتِهِ كَفَاكَ من البحـرِ الخِضَمِّ عُبابُ

(ابن زيدون ، ٣٧٣)

إن الأمير لا يعطي عن كره أو ابتزاز، إنما يعطي كي يثبت هيمنته وسلطانه، ويفرض على الآخرين الخضوع له، ولهذا فإنه يعطي بدون حساب، ولا يحتاج لأن تحركه بالكلام؛ ليجود بماله وعطاياه، كما إنه لا يحصي ما يبذله في الوقت الذي يحصي بعض الواهبين غيره ما يبذلونه من عطاء على قلته، ونفس الأمير النبيلة هي التي بلغت به هذه المكانة من الرفعة، ولذلك فهو يستحق ما وصل إليه من فضل، فعطاياه تطلق ألسنة الشعراء بالثناء عليه، مما يهلك الحساد من غيظهم؛ لأنهم لا

يظفرون بمثل هذا المديح، فهم لم يتعودوا بذل العطاء كما يفعل الأمير، فيقول :

غَنيٌّ عــن الإبـساسِ دَرُّ نَـوَالِهِ إذا استَنزَلَ الدَّرَّ البَكِيءَ عِصَابُ
إذا حَـسَبَ النَّيْـلَ الـزَّهيدَ مُنيلُهُ فـما لعطــاياهُ الحِسـابُ حِسَابُ
عطايا يُصيبُ الحاسِدُونَ بِحمدِهِ عليها ولم يُـحْبَـوا بِهـا فَيُحابُوا

(ابن زيدون، ٣٧٤)

ومن الصفات التي يثبتها الشاعر لممدوحه أيضا؛ ليثبت شرعيته، أن الأمير سمح الجناب، سهل المزار، تواضعت به أخلاقه، وإن سمت به أحسابه، وإنه قد تكفل بتيسير كل عسير، وتذليل كل صعب، لما له من سلطان وهيبة ووقار، كما أنه قاهر غلاب ذو سلطة عسكرية وسياسية لا تقهر، فأعداؤه ينصرفون عن مناضلته؛ لأنهم يدركون مدى شجاعته وبأسه، فإن تعذر القتال فله من حسن سياسته وتدبيره وحيلته ما يكفل له النصر، فالأمير ذو حكمة، وله عزمات قوية، وآراء صائبة، فإذا صمم على شيء فإنه سيصيب هدفه؛ لأنه لا يفشل له رأي، ولا يطيش له تدبير، ولذلك يتحامى أعداؤه عزماته كما يتحامون الأسلحة الفتاكة يوم القتال ، فيقول :

مُوَطَّأ أكنافِ الســماحِ دَنَتْ بِـهِ خَلائقُ زُهْرٌ إذ أَنَـافَ نِصَابُ
فـزُرْهُ تَـزُرْ أكنـافَ غُـنَّاءِ طَلَّةٍ أَرَبَّــتْ بها للمَكرُمـاتِ رَبَابُ
زَعيمُ المَساعِي أن تَلينَ شَـدائِـدُ يُـمــارِسُـهَا أو تَلينَ صِـعَـابُ
مَهيبٌ يُغَضُ الـطَّرفُ منـهُ لآذِنٍ مَهَابتُهُ دُونَ الحِـجَـابِ حِجَابُ
لأبلَجَ مَوفورِ الجَــلالِ إذا احتَبَى عَـلا نَـظَـرٌ مِنه وعَزَّ خِطَابُ
وّذي تُدرإٍ يَعدُو العِدا عن قِراعِهِ غِــلابٌ فـمـهما عَزَّهُ فَخِلابُ
إذا هو أمضى العَزمَ لم يكُ هَـفْوَةً يُـؤثِّـرُ عنها في الأنامِلِ نابُ
عزائمُ ينصاعُ العدا عن مُـمِرِّها كما رُهِبَتْ يومَ النِّضالِ رِهَابُ
صَوائبُ رِيشُ النَّصرِ في جَنَبَاتِها لُؤامٌ وَرِيشُ الطائشـاتِ لُغَابُ

(ابن زيدون ، ٣٧٤)

ومن الصفات التي تؤهله أيضا لبسط نفوذه وسلطانه على غيره، أنه حليم، فالأمير على شجاعته وبأسه حليم، ترد أناته جهل الجاهلين، وقد يكون هذا الحلم عقابا لهؤلاء الجاهلين، وربما قابل هذه الأخطاء والهفوات بعطايا جزيلة، تجعل المخطئين يقابلون هذا الحلم وهذا الكرم بالطاعة والولاء والخضوع لولي نعمتهم، فيقول:

حلـيــمٌ تَـلافَى الجاهلينَ أَنَاتُـهُ إذ الحِلمُ عن بعضِ الذُّنوبِ عِقابُ
إذا عَثَرَ الجاني عفا عفوَ حَافِظٍ بِـنُعْمـى لها في الـمُذنِـبـيـنَ ذِنابُ
شَهامةُ نفسٍ في سلامةِ مَذهَبٍ كَـمـا الـماءُ للرَّاحِ الشَّمُولِ قِطابُ

(ابن زيدون ، ٣٧٦)

إن هذه الصفات والأخلاق تشير إلى نبل أصل الممدوح ، فبنو جهور أصحاب مكانة رفيعة في قلوب الناس، لما لهم من مآثر وأمجاد، فقد حلوا مكانة سامية اتسعت بها ساحة المجد، وأشرقت بهم الأرض، وباهت بوجوههم نجوم السماء، ولكن الأمير في عين ابن زيدون هو خلاصة هذه الأمجاد، فيقول :

بـني جـهـور مهـمـا فَـخَـرتُـم بأَوَّلٍ فَـسِـرٌّ مـن المجـدِ التَّـلـيدِ لُبـابُ
حَطَطتم بحيثُ اسلنطحت ساحةَ العلا وأوْفـتْ لأخطـارِ السَّنـاء هِضَابُ
بكم باهَتِ الأرضُ السـمـاءَ فأوجُـهٌ شُمُوسٌ وَأيدٍ فيَ المُحولِ سحابُ

(ابن زيدون ، ٣٧٧)

إن هذه الفضائل والصفات لا يذكرها الشاعر هباءً، فهي ليست عرضية أو هامشية، بل إنه يقوم بتوظيفها لإضفاء الشرعية السياسية على الأمير، وتأكيد ولاء الشاعر له، فالأمير جميل المحيا كريم الطباع ، باراه الناس في الكرم والشجاعة وحسن الخلق، فغلبهم، وسبقهم، وامتيازه هذا على منافسيه أقر عيون أصدقائه، وأخزى قلوب أعدائه، وأذل رقابهم ،فكانت النتيجة أن أعلنوا خضوعهم له، وأقروا بسلطانه عليهم ، فيقول :

أشارحَ معنى المجدِ وهو مُعَمَّسٌ وَعَامِرَ مَغنى الحمدِ وهو خَرابُ
مُـحَـيَّاكَ بَـدرٌ والـبُـدُورُ أهِـلَّةٌ ويُـمـنـاكَ بحرٌ والبحورُ ثِعَابُ
رأيـتُـكَ جَـارَاكَ الوَرَى فغَلَبْـتهُـم لذلك جَـرْيُ الـمُـذكِـيـاتِ غِلابُ
فَـقَـرَتْ بها من أوليائكَ أعينٌ وذلَّت لها مـن حـاسـديك رِقابُ

(ابن زيدون ، ٣٧٧)

ولكي يثبت الشاعر الشرعية الدينية للأمير بعد أن أثبت له شرعيته السياسية، كان عليه أن يثبت له بعض الصفات التي تؤهله لذلك، وهذه الصفات تدل على تدينه، وعدله، ودفاعه عن دين الله، فيقول له: لقد بسطت علينا ظلال الأمن، فطابت لنا الحياة وأخصبت البقاع، وبسطت علينا حمايتك، فاستقر الأمن وعم السلام ،حتى سالمت الطيور الكاسرة ضعاف الطير، وكفت الذئاب الضارية عن افتراس الماشية، الأبيات (٥٣ : ٥٥)

فَتَحتَ المُنَى مِن بعد إلهامِنا بها وقد ضاعَ إقـلـيـدٌ وَأُبـهِـمَ بـابُ
مَدَدْتَ ظلالَ الأمنِ تخضرُّ تحتها من العيشِ في أغْذَى البِقَاعِ شِعابُ
حِمىً سَالَمَتْ فيهِ البُغاثَ جَوَارِحٌ وَكَـفَّتْ عـن البَـهْـمِ الرِّتَاعِ ذئـابُ

(ابن زيدون ، ٣٧٨)

إن دعاء الشاعر للأمير في قوله :

فلا زِلتَ تَسعى سَعيَ من حَظُّ سَعيِهِ نَـجـاحٌ وحَـظُّ الشَّـانـئِـيـه تَـبَـابُ

(ابن زيدون ، ٣٧٩)

يدخل ضمن الأفعال الكلامية الأدائية التي تدخل في باب الاعتراف بشرعية الأمير، وتبعية الشاعر وولائه له، وشرعية الأمير الدينية يثبتها الشاعر في الأبيات من (٥٧ : ٣٦) ، فالأمير مؤلف لما تشتت من شمل الدين ، جامع لما تفرق من جموع أصحابه ، كما أنه مصلح لشئون الرعية ، فالأمير لا يلهيه شيء عن ذكر الله ، فإذا ما انصرف الملوك مع جلسائهم إلى اللهو والشراب ، فإن لذة الأمير تكمل بذكر الله ، وتمام صحبته تكون بمدارسة العلوم وصحبة الكتب ، فيقول :

فإنك للـدِّيـنِ الشَّـعـيـبِ لَمُلئمٌ وإنَّـك للـملكِ الـثَّـئـي لَرِئَابُ
إذا معشرٌ ألهاهُم جُـلـسـاؤهم فلهوُك ذِكْرٌ والجـلـيسُ كتابُ

(ابن زيدون ، ٣٧٩)

كما أن الأمير حزين ومفجوع لانتهاء شهر رمضان ، والشاعر يعزيه في مصابه ، فشهر رمضان زائر كريم لو تحققت آمال الأمير لامتد طوال العام ؛ ليزداد فيه ثوابا إلى ثواب ، ويشهد الشاعر أن الأمير قد أدى فرض الصوم حق الأداء ، كما أنه عليم بأمور الدين ، وبما يرضي الله – عز وجل – ولذلك فقد لزم المسجد مؤتنسا بالعاكفين فيه على عبادة الله راكعين ساجدين ، فالأمير متمسك بدينه ، محافظ عليه ، مخلص في عبادته لله ، وهذه المآثر الصالحات ستخلد ذكر الأمير في الدنيا ، وتجزل ثوابه عند الله في الآخرة ، فيقول :

نُعـزِّيكَ عن شهرِ الصيامِ الذي انقضى فإنك مَـفـجُـوعٌ به فمُصـابُ
هو الزَّوْرُ لو تُعطَى المُنى وضَعَ العصا ليزدادَ من حُسنِ الثوابِ مُثـابُ
شَهِدْتُ لأدَّى مـنـك واجـبَ فَرضِـهِ عليمٌ بـمـا يُرضِي الإلهَ نِقـابُ
وجاوَرتَ بيتَ اللهِ أُنـسـا بمعشَرٍ خَشـوهُ فَخروا رُكَّعا وأنـابُـوا
لـقـد جـدَّ إخـبـاتٌ وحَـقَّ تبتُّلٌ وبـالـغَ إخلاصٌ وَصَـحَّ متابُ
سَيَـخْـلُـدُ في الدنـيـا بـه لك مَفخَرٌ ويَحسُنُ في دارِ الخُلُـودِ مَـآبُ

(ابن زيدون ، ٣٨٠)

أما الأبيات الثلاثة الأخيرة في هذا الجزء ، فقد اختصها الشاعر بتهنئة الأمير بعيد الفطر ، فيقول :

وبُشـرَاكَ أعـيادٌ سَيَـنـمي اطِّـرَادُها كما اطَّردَتْ في السَّمهريِّ كِعَابُ
ترى منك سَرْوَ المُلكِ في قَشَفِ التُّقى فَـيَـبْـرُقُـها مَرأى هُناكَ عُجَابُ
فـأبـلِ وأخلِـفْ إنـمـا أنـتَ لابـسٌ لهذي الليالي الغُـرِّ وهـي ثيابُ

(ابن زيدون ، ٣٨١)

إن تهنئة الشاعر للأمير ودعاءه له باستمرار الأعياد واطرادها يجعل التهنئة بالعيد أمرا ذا أهمية كبيرة بالنسبة للأمير ، وذلك لأن هذه التهنئة تؤكد مكانة الأمير السياسية ، وسيطرته على السلطة ، ونجاحه عسكريا في حماية مملكته ، وتثبيت دعائمها ، كما أنها تؤكد أيضا مكانته الدينية ، فالتهنئة بالعيد تعني أن هذه السلطة

توصف بأنها إسلامية ، فهي سلطة سياسية إسلامية ، وبذلك يتم تأكيد شرعية حكم أبي الوليد بن جهور ، وتقديم الشاعر التهنئة يمكن أن نقرأه من جانب آخر بأنه تجديد لولاء الشاعر للأمير ، واعتراف صريح منه بخضوعه لهذه السلطة الحاكمة ، وقد يكون ذلك ردا على كل التهم والدسائس التي تحاك ضد الشاعر ، فأراد أن يتبرأ من كل ما نسب إليه من خلال هذه التهنئة ، " لأن تقديم شاعر البلاط لقصيدته يوم العيد فعل من أفعال الولاء الإجبارية سياسيا وطقوسيا " (ستيتكفيتش ، ٣١٠)

كما أن مظاهر الاحتفال بعيد الفطر ، وما فيها من جلال وبهاء تثير في نفوس الأعداء الرهبة والرعب من الأمير ، فقد اجتمع له في العيد مع بهاء الملك وجلاله التقشف والزهد مما يدعو للدهشة والاستغراب .

أما الجزء الأخير من القصيدة ، والذي يشمل الأبيات (٦٨ :٩٣) ، فقد انتقل فيه الشاعر من المدح إلى الفخر بنفسه وعتاب السلطة السياسية ، ويتضح في هذا الجزء دور الشعر في رفع مكانة الشاعر ، فهو سلاحه ومصدر قوته في مواجهة أي خطر أو تهديد له ، يبدأ الشاعر هذا الجزء بإعلان خضوعه التام للأمير ، ذلك الخضوع الذي معه تهون حياة الشاعر فداءً للأمير ، وذلك يعبر عنه قوله " فديتك " الموجودة في صدر البيت (رقم ٦٨) ، ثم يبدأ الشاعر في سرد معاناته مع أعدائه ، فهؤلاء الأعداء غادرون ، إذا أكرمتهم أمعنوا في الفساد ، وعضوا اليد التي أطعمتهم ، فأشعلوا نار البغي والآثام ، فيقول:

فديتُكَ كم أَلقَى الفواقِرَ من عِدا قِرَاهُم لِنِيرانِ الفسادِ ثِقَابُ

(ابن زيدون ، ٣٨١)

ولبيان فداحة الصراع بينه وبين هؤلاء الأعداء يفرد الشاعر الأنا الشاعرة، وهي تواجه عذاباتها منفردة دون نصير ، مما يدل على شقاء الشاعر وعذابه، فيتحدث بضمير المفرد المتكلم ، ورغم ذلك فإنه يشعر بفحولته الشعرية والسياسية وهامشية هؤلاء الأعداء ، ولذلك فإنه لا يقيم لهم وزنا ، ولا يرد عيهم لارتفاع قدره عنهم ، وكلما زاد في عفوه عن جهلهم ازدادوا جهلا على جهلهم ، فاقذعوا في هجائه، وعابوا عليه أخلاقه السامية ؛ لأنهم يفتقرون إليها، فيقول :

عفا عنهم قَدرِي الرَّفيعُ فأهجَرُوا وَبَاينَهُم خُلُقي الجميلُ فَعَابوا

(ابن زيدون ، ٣٨١)

وتظهر فحولة الشاعر من خلال تهميشه لهؤلاء الأعداء ، فهم بالنسبة له جحاش في الوقت الذي يعد نفسه أسدا ، ولذلك فلا عجب إذا نالوا منه بألسنتهم، فربما نهقت الحمير على الآساد ، وربما نبحت الكلاب على الأقمار، ولا يعيبه كلامهم ، ولا ينقص من قدره ، كما لا يعيب حسن الروض أو عطره أن يطن فيه ذباب ، ثم يدعو الشاعر عليهم متمنا أن يدوم حقدهم عليه ؛ لأن هذا الحقد يجوس بين ضلوعهم فيضنيهم ، ويعذبهم ، ويوسعهم غما ، فيقول :

وقد تُسمعُ اللـيـثَ الجحاشُ نَهيقَها وتُـعـلِي إلـى الـبـدرِ النُّباحَ كِلابُ
إذا راقَ حُسنُ الرَّوضِ أو فاحَ طِيبُهُ فما ضـرَّهُ أن طـنَّ فـيـه ذبابُ
فـلا بَرِحَتْ تلك الـضغائنُ إنهـا أفـاعٍ لـهـا بـين الضلوعِ لِصابُ

(ابن زيدون ، ٣٨٢)

ولكن حينما ينقلب هذا الوضع ، ويتحول الشاعر من المركز إلى الهامش ، وينتقل أعداؤه إلى موضع المركز ، من خلال احتفاء السلطة السياسية بهم ، والاستماع لادعاءاتهم ، فهنا يبدأ الشاعر في معاتبة السلطة السياسية ، وذلك يدفعه إلى البحث عن ذاته وقوته المتمثلة في سلطتة الأدبية ، وهنا تظهر الأنا الشاعرة بكل قوتها في مقابل الأنا الحاكمة ، لتهدد سطوة الأنا الحاكمة ، وتوضح لها أنها في مقدرتها الخروج عن سلطانها ، واللجوء إلى سلطة سياسية أخرى ترعى حقها ، وتقدر مكانتها ، لكن الشاعر في الوقت نفسه لا يخرج عن حدود الأدب ، وما هو مسموح به في حضرة الأنا الحاكمة ، وذلك رغبة منه في إعادة الاندماج ، والدخول تحت راية الحاكم ، واستعادة مكانته لديه مرة أخرى ، فلقد أتاحت تجربة ابن زيدون السابقة ومعاناته من قهر السلطة في عهد أبي الحزم بن جهور ، معرفة أساليب السلطة القمعية في قهر أعدائها ، ولذلك نعي حقيقة القلق والخوف الذي انتاب النسق الشعري حينما رأى النسق السلطوي يستمع للوشاة ، وهذا جعل ابن زيدون يتعامل مع السلطة السياسية الحالية بحذر شديد .

يقول د/ يوسف عليمات : " يتجلى صراع الشاعر مع السلطة المضادة من خلال ظهور صوت الأنا التي تصنع أفقها وعالمها الذاتي إزاء عالم السلطة المضادة، ولقد تعددت أساليب الشعراء في الإفصاح عن ظهورات هذه الأنوية وسلطتها ، ومن ثم تشكلاتها حسبما تقتضي شيفرات النص الشعري ، فالنص الشعري يتضمن في بنيته العميقة أنساقا مضمرة تعلي من شأن الأنا في مقابل سلطة الآخر وهيمنتها ، وتجعل صنيعها نسقا مهيمنا على الرغم من ثانويته وهامشيته " (عليمات ، جماليات التحليل ، ٥٣)

فإذا طبقنا هذا الكلام على هذا الجزء من القصيدة ، نجد أن ابن زيدون يعلم أن الشاعر بينه وبين السلطة السياسية ميثاق، هذا الميثاق يجعل على الشاعر واجبات تجاه السلطة ، وفي المقابل له حقوق يجب على السلطة القيام بها ، فيجب أن يلتزم الشاعر بمدح الأمير فقط ؛ لأنه لا يمكن إعلان الولاء والخضوع لسلطتين سياسيتين في نفس الوقت ، وهذا يلزم الأمير/السلطة السياسية أن يقوم بحماية الشاعر ، وعدم السماح لأعداء الشاعر بالنيل منه ، وعدم الاستماع للوشاة ، فإذا لم يقم الأمير بحماية الشاعر المؤيد لشرعيته ، فإن هذا يبطل ذلك الميثاق ، ويجعل من حق الشاعر أن ينتقل بشعره عن الأمير حيث يجد من يؤدي حقه ، ويحمي جواره ، ويعلي مكانته .

لكن الشاعر يستمر في مدح السلطة السياسية موظفا لغته الجمالية؛ ليولد أنساقا متوارية خلف هذا الجمالي تمكنه من ممارسة التمويه والخداع على هذه السلطة، ومن ثم استغلال تعلقها وانشغالها بهذا الجمالي بغرض تأسيس الذات البصيرة الناقدة التي تفضح عيوب السلطة، فالشاعر يخشى أن يصرح بهذا النقد للسلطة، فيصيبه منها ما أصابه سابقا، فيقول الشاعر أن هناك من ينصحونه بالهجرة عن هذا البلد حيث يجد التكريم والحفاوة، ويظفر بتحقيق الآمال، فهؤلاء الناصحون يزهدونه في الإقامة في هذا البلد، بجانب تلك السلطة التي لا ترعى حقه، فبرغم أنه سيف قاطع إلا أنه مهمل في غمده، فإن ظل مقيما عند الأمير قد يخفى فضله، وتضيع مواهبه ، فالسيف لا يظهر مضاؤه إذا ظل مغمدا في جفنه، فيقول:

يقـولــون شَــرِّق أو فـغَرِّب صَريمةً إلى حيثُ آمالُ النـفـوسِ نِهَابُ
فأنت الحُسامُ العَضْـبُ أُصــدِئ مَتنُهُ وعُـطِّـل منـه مَضْرَبٌ وذُبابُ
وما السـيــفُ مما يُـستَبانُ مضاؤه إذا حـاز جَــفـنٌ حَدَّهُ وَقِـرابُ

(ابن زيدون ، ٣٨٢)

ويدعي هؤلاء الناس أن الأمير قد غضب على الشاعر، وأبعده مما ألحق الكدر والتنغيص بآمال الشاعر في الأمير ، وسألوه عن سر بقائه في هذا البلد، وقد خابت آماله، وتبددت أمانيه، فيرد عليهم مؤكدا أن انصراف الأمير عنه مؤقت وغير مقصود، فلم يتعود الأمير معاملة الشاعر بجفاء مما يدعوه إلى الارتياب والقلق والخوف، وإن كانت هناك جفوة فإنها من قبيل المصادفات، فقد تتعكر صفحة الماء ثم تصفو، وقد يستر الضباب ضوء الشمس ثم تشرق ، فيقول :

وإن الذي أمَّلتُ كُـدِّرَ صَفوُهُ فأضحى الرِّضا بالسَّخطِ منه يُشابُ
وقد أخلَفت مما ظَنَنتُ مَخايلٌ وقد صَـفِرتْ مما رَجَوتُ وِطَـابُ
فمن لي بسلطـانٍ مُبينٍ عليهِمُ إذا لــجَّ بـالخَصــمِ الألـدِّ شِـغَـابُ
لـيُخـزِهِم إن لم تَرِدْنــيَ نَبوَةٌ يُساءُ الفتى من مَـثلِـها ويُـرابُ
فقد تتغشى صَفحةَ الماءِ كُدرَةٌ ويَـغطُو على ضَوءِ النَّهارِ ضبابُ

(ابن زيدون ، ٣٨٣)

إن الشاعر يؤكد للسلطة أن هؤلاء الناس يشيرون عليه بالهجرة في طلب الجاه والمال، لكنه يعد الثروة و الجاه إن لم يكن من الأمير نكبة و حسرة، ويعتبر كل شيء حلو ما لم يبذله الأمير مر المذاق، فإن كان هناك موضع للآمال في هذه الدنيا فالأمير هو محط الآمال، فيقول :

سُرورُ الغِنَى ما لم يكم منك حَسرَةٌ وَأريُ المُنى ما لم تُنَل بك صَابُ
وإن يــكُ فــي أهلِ الزَّمانِ مُؤمَّلٌ فأنتَ الشَّرابُ العذبُ وهو سَرابُ

(ابن زيدون ، ٣٨٤)

فهذه الأبيات إن كان ظاهرها المدح وولاء الشاعر للأمير/السلطة السياسية ، فإنها في الباطن تهديد صريح لهذه السلطة الحاكمة ، واتهامها بخيانة الشاعر ، وعدم القيام بحقه ، وذلك باستماعها لأقوال الوشاة ، والطعن في ولاء الشاعر ، ويعد هذا ظلما بينا للشاعر .

والأبيات (٨٣ :٨٦) يمكن عدها تحت مصطلح العتاب ، ذلك العتاب الذي يتحول إلى تحد واضح للسلطة السياسية وتهديدها بطريقة غير مباشرة ، فيتساءل الشاعر متعجبا كيف ينهار جانب من كان في جوار رفيع كجوارك أيها الامير ؟ أو يجدب من كان في ظل ظليل كظلك ؟ وكيف يضيع إطرائى ومدحي لك وثنائي عليك بشعر يشيب الزمان وهو شباب غض لا يشيب يردده الزمان جيلا بعد جيل ، سأبكي على حظي لديك ، وأشكو خشونة موضعي عندك ، وأندب سوء طالعي تحت ظلالك كما يشكو الأسير من إلقائه على الأحجار الحادة عند النوم ، فيقول :

أيُعْوِرُ مِن جارِ السِّماكَينِ جَانـــبٌ ويُمْعِزُ في ظلِّ الربيعِ جَنابُ؟
فـأيـن ثناءٌ يَـهـرَمُ الـــدَّهـرُ كِبرةً وحِليتُهُ في الغابرين شَبـابُ؟
سأبكـي على حظي لديك كما بكى رَبـيعـة لما ضلَّ عنه ذُؤابُ
وأشكو نُبُوَّ الجَنبِ عن كل مَضجعٍ كما يتجافى بالأسيـر ظِـرَابُ

(ابن زيدون ، ٣٨٤)

وفي الأبيات (٨٧ :٩٣) يفاوض الشاعر فيها ممدوحه حول مرتبته ومكانته في مواجهة منافسيه ، فيقول : هب لي ثقتك فإني كالأسد الكاسر في عالم الشعر، وغيري يطن فيه كما يطن الذباب ، ولا تعدل بي أحدا من مادحيك ، فإن القوافي الصعبة الشاردة التي لا ينتج لها مثيل إذا حضرت فر هؤلاء المادحون ، وثبت أنا لها ، فإنني كفيل بها ، ولذلك فأنا أعدل المادحين كلهم ، وأنوب عنهم ؛ لأنني جمعت فضائل البلغاء جميعا ، ولا يستطيع أحد أن يبدع إبداعي في الثناء ؛ لأني نهلت من منبع شعري فياض حتى ارتويت ، ومنع غيري من هذا المورد العذب ، فبرح بهم الظمأ ، ولقد أسعفني علم تتابعت فنونه ، فانتظمت في قريحتي كما ينتظم العقد في سمطه ، فعد إلى سابق مودتي، واسدِ إليَّ يدا بيضاء تفصل بيني وبين خصومي ، فإنهم دأبوا على اختلاق الأخبار السيئة ، والصاقها بي زورا وبهتانا ، وأنت أكرم وأنبل من أن تقبل الذم في أصحاب النفوس الأبية ، وأعقل من أن يخفى عليك الصواب ، فيقول :

فثِق بهِزَبرِ الشِّعرِ واصفح عن الورى فـإنـهـم إلا الأقـــلَّ ذُبـابُ
ولا تعـدِلِ المُثنِـينَ بـي فـأنـا الذي إذا حضر العُقمُ الشوارِدُ غابُوا
يَـنـوبُ عـن المُـداحِ مـنـي واحـدٌ جميعُ الخِصَالِ ليس عنه مَنَابُ
وردتُ مـعـينَ الـطَّـبَـعِ إذ ذيدَ دونه أناسٌ لهم فـي حَـجرتيه لُوابُ

ونَـجَـدَني عِـلـــمٌ تَـوالـت فُـنُـونُـهُ كما يتوالى في النِّظَامِ سِخـابُ
فَـعُـد بـيـدٍ بيضاء يَـصدَعُ صِدقُها فإن أراجـيـــفَ العُـدَاةِ كِذابُ
وحـــاشـــاك من أن تُـستَـذَمَّ مَـريرةٌ لعهدكَ أو يَخفى عليك صوابُ

(ابن زيدون ، ٣٨٥)

وتعد هذه الأبيات تعبيرا عن فحولة الشاعر ومركزيته ، وفي المقابل هامشية غيره ، فتوظيف غرض الفخر في المدح هدفه إثبات مكانة الشاعر الشعرية التي أهلته لمكانته السياسية في بلاط الأمير ، ولذلك يرى د/ يوسف عليمات أن العلاقة بين الخطاب الشعري في أدبنا العربي والسلطة التي ترعاه لا تخضع في كليتها لمفهوم الهيمنة المطلقة للسلطة ، بحيث يتحول الخطاب الشعري إلى خطاب شعاراتي يروج للسلطة ، ويدعم أركانها بل إن القراءة الثقافية للنصوص المدحية تثبت مما لا يدع مجالا للشك أن الصيغ الجمالية التي تنتظم فيها هذه القصائد ما هي إلا تشكيلات زخرفية خارجية وخادعة للسلطة ، وليقدم لنا صور للنسق المضاد ، ذلك النسق الذي يرفض محاولات السلطة في جعله عبدا يوظف قدراته الإبداعية وأدواته الفكرية من أجل امتداحها وتزيين قبحياتها وتجاوزاتها (عليمات ، النسق الثقافي ، ١٦).

فالشاعر في البيت الأخير يُسَخِّر ثقافته العالية وسلطته الفكرية ولغته الشعرية في الإشارة إلى حماقة ذلك النسق السلطوي، الذي يصغي لمقالة الواشين ، مما يظهر النسق السلطوي عاجزا عن توظيف قدرات العقل للتمييز بين الحقيقة والزيف .

(٣)

لقد عارض القصيدة السابقة الأعمى التطيلي(١) بقصيدة يمدح بها محمد بن عيسى الحضرمي (٢) ، وقد اتبع الشاعر فيها البنية الثلاثية لقصيدة المدح الجاهلية ، ولكنه بدلا من أن يبدأها بالنسيب بدأها بشكوى الزمان ، ثم ينتقل إلى المدح مضمنا إياه بيتا يشير إلى العنصر الثاني من البنية الثلاثية ، وهو الرحيل إلى الممدوح ، فيقول: الأبيات (١: ٨)

عِتابٌ على الدُّنيا وَ قَـلَّ عِتـابُ رضينا بما تَرْضى ونحنُ غِضابُ
وقالتْ وأصغينا إلى زُورِ قـولها و قـد يَسْتَفِزُّ القولُ وهـــو كـذابُ
وَغَطَّـتْ على أبصارِنا وَقلوبِنَا فطـالَ عليها الحَوْمُ وهـــي سَراب
ودانـت لهـا أفـــواهُنَا وعقُولَنَا وهـل عِنْـــدَهَا إلا الفـناءُ ثـــواب
وتـلـــك لعمرُ الله أمـا ركوبُهَا فَـهُلْكٌ و أمَّا حُـكْـمُـهَـا فَـغِلاب
نـلـدُّ ونـلهـو والأعـزَّةُ حولها رُفَـــاتٌ و نبني و الـدِّيـارُ خراب
وَ تخْدَعُنَا عـمَّا يُـرَادُ بنا منىً لَـبحـرِ المـنايا دونهـنَّ عُـبَـاب
و نغتنمُ الأيامَ و هـيَ مصائبٌ لـهـنَّ عليـنـا جِـيـئةٌ وَ ذَهـاب

(التطيلي ،8)

إن تبني الشاعر الأسلوب العالي لقصيدة المدح الجاهلية بمثابة زعم منه بأنه الوارث الشرعي للإرث الثقافي الأدبي ، وبأنه الصوت الشعري الشرعي، ويضمن هذا الزعم بأن يكون الممدوح في القصيدة هو الوارث الشرعي للسلطة السياسية التي تنقل عبر قصيدة المدح ، وبما أن السلطة الشرعية في العصر المرابطي استولى عليها المرابطون ، وانتقل مركزها إلى مراكش حيث أصبحت عاصمة الأندلس ، لم تعد هناك صلة تربط الشاعر بالسلطة

١- هو أبو العباس أحمد بن عبد الله بن هريرة القيسي الأعمى التطيلي ، أصله من تطيلة ، لكن أهله هاجروا إلى إشبيلية ، و لذلك نشأ فيها ، وقضى معظم حياته بها ، اختلف العلماء حول عام مولده و وفاته ، و لكن الراجح أنه ولد عام ٤٨٥ه ، و توفي عام ٥٢٥ه ، انظر (التطيلي : مقدمة الديوان) ، و(ابن بسام ، ٢ /٧٢٨) ، و(الضبي ، ١ / ٢٣٤)، و(فروخ ، ١٦١/٥)

٢- محمد بن عيسى الحضرمي : لم أجد له أي ترجمة في المصادر التي تحدثت عن الأعمى التطيلي ، إلا أن إحسان عباس يقول في مقدمة ديوان الأعمى التطيلي أنه من بني الحضرمي ، وهي عائلة كانت تعيش في قرطبة وبعض المدن الأندلسية الأخرى ، ولم يذكر شيئا عنه غير ذلك ، ولذا تعتبر قصائد الشاعر المدحية فيه أهم المصادر التي تحدثت عنه . انظر (التطيلي ، ٨ ، ٣٣ ، ٥٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١١٧ ، ١٦٨)

السياسية/أمير المسلمين إذا لم يرتحل إليه ، ولعله لو ارتحل إليه لوجد الفقهاء يسدون الأبواب في وجهه ، ولعجز الشاعر الناتج عن العمى لم يستطع أن يرتحل إلى أمير المسلمين ، فما كان أمام الشاعر إلا أن يتجه إلى الرجال البارزين في الأندلس ؛ ليمتدحهم ، وكان منهم بنو الحضرمي .

ويفهم من شعر الأعمى التطيلي أن محمد بن عيسى الحضرمي كان قد تبوأ منصب القضاء ، وهؤلاء القضاة في الأندلس أصبحت لهم سلطة واسعة على الناس في العصر المرابطي ، وذلك لأن المرابطين قد خولوهم مكانة مرموقة ، وسلطة كبيرة، فقد كان للقاضي السلطة والرقابة على القضاء ، والفتيا ، والشورى ، والخطبة يوم الجمعة ، وعلى أحكام السوق كلها من رقابة سلوك الناس ثم الفصل في منازعاتهم ، كل ذلك جعل من القاضي حاكما فردا في منطقته (فروخ ، ١٦١/٥)

ولذلك اتجه الشاعر إلى ابن عيسى بمدحه ، والتزام الشاعر بالبنية الثلاثية في قصيدته المدحية إشارة إلى سلطة قائل القصيدة بوصفه شاعرا ، وسلطة الممدوح بوصفه حاكما.

وفي الأبيات السابقة يشكو الشاعر الزمان والدنيا ، وهي سمة أساسية في أي إنسان أصيب بالعمى ، وإن كانت هذه الشكوى تكثر وتقل تبعا لشخصية كل مصاب، وقدرته على التحمل ، وتمسكه بالرضا والخضوع لقضاء الله وقدره ، ولذلك نجد

أثرها واضحا في مقدمة القصيدة ، فالشاعر يرضى بما ترضاه الدنيا رغما عنه ، تلك الدنيا التي كلامها كذب ، ووعدها سراب ، وخير جزاء لمن يثق بها ، ويصدق كذبها أنها تفنيه بالموت ، وتهلك الجميع ، فالناس تلهو وتغفل عما تدبره الدنيا لهم ، فإذا نظرنا حولنا نجد ملوك الأرض الأعزة رفات يتساوون مع العامة أمام غدرات الزمن ومصائب الدنيا ، فالموت لا يفرق بين غني وفقير ، فنبني الديار والدنيا تصيرها خرابا ، فهذه الأيام لا تأتي بخير ، فكلها مصائب تتبعها مصائب .

هذه النظرة السوداوية للحياة يستتبعها الشاعر بشكوى أخرى من الزمان ، ذلك الزمان الذي يمر سريعا ، فيظهر الشيب ، ويرحل الشباب بلا رجعة ، وهنا نجد هجوما حادا من الشاعر على الأنثى ، فبمجرد أن ظهر الشيب بمفرق الشاعر هجرته صاحبته ، ورغبت عنه ، ورغم ذلك يعرض لنا حججا يثبت بها جمال الشيب وإيجابياته ، فالشيب يجلي غواية الشاعر ، فيجعله عليما بالأمور ، لا يخفى عليه الصواب أينما كان ، فما الشيب إلا الرشد ، ذلك الرشد الذي جعل شيطان الشاعر يعض بنانه ؛ لأنه أصبح لا سلطان له على الشاعر ، ويؤكد الشاعر أنه صابر على بلاء ونوائب هذا الدهر ، فيقول:

الأبيات (٩: ١٦)

بكتْ هندُ من ضِحْكِ المشيب بمفرقي ... أَمَا عَلِمَت أنَّ الشبابَ خِضَاب
و قالت غُبَارٌ ما أَرى و تجاهلت ... و ليس على وَجْهِ النّهارِ نِقَاب
هل الشيبُ إلا الرُّشْدُ جلَّى غوايتي ... فأصبحتُ لا يَخْفَى عليَّ صواب
وَ أَصْبَحَ شيطاني يَعَضُّ بنانَهُ ... وقد لاحَ دوني للقَتيرِ شِهَاب
أأعفو لِصَرفِ الدَّهْرِ عن هَفَوَاتِهِ ... على حينَ لا يأتي عليَّ عِقَاب
وأتركُهُ يَمْضي علَى غُلَوَائِهِ ... وقد قَلَّ إعتابٌ وطال عتاب
برئتُ من العلياءِ إن لم أردَّهُ ... ولي ظُفُرٌ قد عَاثَ فيه وناب
وإن لم أنَهْنِه من شَبَاهُ بِعَزَمَةٍ ... تَذِلُّ لها الأِشياءُ وهي صعاب

(التطيلي ، 9)

وفي الأبيات (١٧: ٢٠) تظهر الأنا الشاعرة مفتخرة بنفسها في مواجهة ادعاءات العاذلة التي تسأله عن سبب رحيله عن حمص (إشبيلية) ، فيؤكد أن حمص هي التي أبعدته ، فقد كان كالطيب في غير أهله ، وما استوطنها برضاه، ولا مكث بها حبا فيها ، ولكن سكنها رغما عنه، ثم يشبه نفسه فيها بالسيف حينما يكون في غمده، فهو مهمل فيها، وتشبيه الشاعر لنفسه بالسيف إشارة منه إلى قوته الأدبية، ويهدف منه إلى إثبات مكانته الشعرية، تلك المكانة التى جعلته موضع حسد منافسيه؛ لأن تلك القوة الأدبية التي حرم منها هؤلاء المنافسون، رفعت مكانة الشاعر ومنزلته عند ممدوحيه، فنال بها العلا في الوقت الذي خاب فيه سعي منافسيه وحساده، فيقول:

وقـائلـــةٍ ما بـالُ حـمـصٍ نَـبَت بـه وَرُبَّ سـؤالٍ لـيس عنه جواب
نبت بي فكنتُ العُرفَ في غير أهْله يعودُ على أهلـيه وهـو تَبَاب
فبالله مـــا استوطَـنْـتُها قـانعاً بـها ولكنَّـني سـيـفٌ حـواهُ قِراب
أيُـغْـضِـبُ حُسَّادي قيامي إلى العُلا وقـد قعَدوا لما ظفرتُ وخابوا

(التطيلي ، 9)

يبدأ الشاعر في الأبيات التالية بعد ذلك بذكر الصفات التي أهلت هذا الممدوح لأن يتبوأ ذلك المنصب ، وأن تكون له تلك السلطة السياسية ، فهذا الممدوح ذو بأس وقوة وعزيمة ، تلك القوة التي تيسر له كل أمر ، فإذا أراد شيئا وصل إليه ، وذلك الممدوح يتسم بنبل الأصل ، فهو من بني الحضرمي، الذين أحرزوا العلا بمناقبهم ، فشادوا القصور، وأطالوا البنيان ، وهذا مما يشير إلى عظم مكانتهم بين الناس ، وإذا رموا أصابوا ، فلا يخطئ لهم سهما، كما أنهم لا يظلم لديهم جار ، فهم يحمون من يستجير بهم ، فهم أكرم الناس و أشرفهم و أعلاهم منزلة بأخلاقهم التي هي كالمزن فيها رحمة لمن والاهم ، وعذاب وسم لكل معاند ومكابر ، فيقول : الأبيات (٢١: ٢٧)

وَأروَعَ لا يـنـأى على عَـزَمَاتِـهِ مَـرَامٌ و لا يُـخْـفِي سَـنَاهُ حِجَاب
من الحضرميّين الأُولى أحْرَزُوا العلا بَـنَوا فأطـالـوا أو رَمَوا فأصابوا
مـن المانعينَ الدَّهرَ حوزةَ جـارِهِمْ وأشلاؤهُ بين الخُطُـوبِ نهضاب
همُ عَرَضُوا دون المعالي فأصْـبَحَت مطالـبَ لا يدنـو لَـهُـنَّ طِـلاَب
وهـم جَنَـحوا بالمُعْتـفين إلى نـدىً هـو القَطْرُ لا يـأتي عليه حساب
سَـجَـايا عـلى مرِّ الليالـي كـأنَّـمـا هي المُـزْنُ فـيـه رحـمـةٌ وعَذاب
مـواردَ فـيـهـا سـمٌّ كـلِّ مُـعَـانـدٍ ولكنها للـمُـسْـتَـقِـيدِ عِـذاب

(التطيلي ، 9)

يعد البيت (رقم ٢٨) ممثلا للعنصر الثاني من البنية الثلاثية لقصيدة المدح الجاهلية ، وهو عنصر الرحيل لمقابلة الممدوح ، فيقول الشاعر :

تُخَوِّفُني صَرف الزمانِ وقد حَدَتْ برحلي إلى ابنِ الحَضْرَمِيِّ ركاب

(التطيلي ، 10)

إن العمى ترك أثرا واضحا في شخصية الأعمى التطيلي ، وهذا الأثر ظهر جليا في شعره ، فانعكس في شعره إحساس الشاعر بالعجز والقلق وعدم الاستقرار النفسي الناتج عن احساسه بالضياع والتشتت الناتج عن شعوره بصعوبة الحصول على الرزق ، فالعمى كان يقعد به عن الانتجاع وراء الرزق، فاعتمد على التكسب من شعره ، وذلك جعل الأعمى التطيلي يخاف على نفسه من المستقبل ، ولذلك

يتوجه إلى ابن الحضرمي يتوسل إليه أن يفتح أمامه أبواب السماحة والكرم ، ولا يغلقها في وجهه؛ لأن هذا العطاء الذي يناله من شعره المدحي هو سبيله الوحيد للرزق، وبه يشعر بالطمأنينة .

لهذا نجد الشاعر في مدحه يجتهد في تحريك مشاعر الممدوح؛ ليغدق عليه العطايا والمنح، فيقول : إن هذا الزمان يخوفني بأحداثه ومصائبه ، لكنني رحلت إلى ابن الحضرمي، ذلك الفتى الذي لا تسافر عنه آمال آمل ، فكل أملي معقود عليه، فإذا قابلتُ محمدا تفتحت أمامي أبواب السماحة والكرم ؛ لأن محمدا فتى كثير العلم، ذو عزيمة وبأس، كريم، شجاع، ولولا مآثره لأصبح ربع المجد خرابا، هذه المآثر الكريمة يتحلى بها هذا الفتى، ومما يغيظ أعداءه أنه سيد في عشيرته، خالص من كل عيب، فيقول: الأبيات (٢٩: ٣٦)

إذا الله سنَّى لي لقاءَ محمدٍ ... تفتَّحَ دوني للسماحةِ باب
فتىً لم تُسَافِر عنه آمالُ آملٍ ... وكان لها إلاَّ إليه إياب
لهُ هِمَمٌ في البأسِ والجودِ والندى ... لها فوق أثْباجِ النجوم قباب
وَأقْسِمُ لولا ما لَهُ من مآثرٍ ... لأصبح رَبْعُ المَجدِ وهو يَبَابُ
مآثرُ هنَّ المجدُ لا كسبُ درهمٍ ... وهنَّ المعالي لا حُلَىً و ثياب
يغيظُ العدا منه أغرُّ حُلاحِلٌ ... أشمُّ طُوَالُ السَّاعدين لُبَاب
ولا عَيْبَ فيه لامرىءٍ غير أنَّه ... تُعَابُ له الدُّنيا وليس يُعَابُ

(التطيلي ، 10)

إن الشاعر لا يذكر هذه الصفات إلا ليثبت أحقية الممدوح بمكانته التي وصل إليها، فهو نبيل الأصل، كريم الطبع، إضافة إلى صفاته الدينية التي جمعت له بجانب السلطة السياسية سلطة دينية ، فالدنيا والدين قد فرحا بمقدمه وتوليه منصب القضاء، فأمير المسلمين (سلطان المرابطين) قد اختاره لثقته فيه ، فهو سيف ذو حدين، الأول: الحلم، والثاني: المضاء، فهو أفضل من يتولى ذلك المنصب؛ لأنه حليم وقوي في الوقت ذاته، فيقول: الأبيات : (٣٧: ٤٣)

هو الأسَدُ الوَرْدُ الذي سار ذِكْرُهُ ... وليسَ له إلا البَسَالَةُ غاب
تَبَوَّأ من دارِ الخلافةِ مَقْعَداً ... له فيه عَنْ حُكْمِ القضاءِ مَناب
تباهَتْ به مَنذُ استقلَّ بأمرها ... كما تتهادى لِلْجلاءِ كَعَاب
سَلِ الدينَ والدنيا هل ابتهجا به ... كما انجابَ عن ضوءِ النهار ضبابُ
نَضَاهُ أميرُ المؤمنين مُهنّداً ... له الحِلْمُ مَتْنٌ والمضاءُ ذُبَاب
له المَثَلُ الأعلى مَعاداً ومبدءاً ... وللحاسدِ العاوي حصىً وتراب
ألانتْ لك الأشياءَ وهي صليبةٌ ... عزائمُ في ذات الإله صِلاب

(التطيلي ، 11)

فكما أن الشاعر سيف ، وهو ما يدل على قوته الأدبية كما أشرنا ، فالممدوح كذلك سيف، وهو ما يشير به الشاعر إلى قوة الممدوح وسلطته السياسية، فصورة السلاح سواء للشاعر أو الممدوح تعني رعب الأعداء والمنافسين وخوفهم، أما الشاعر فبمجرد وجوده في مكان ما يخشاه المنافسون؛ لأنهم يعلمون قدرته الشعرية، ويخشون أن يبسط سلطانه الأدبي عليهم، أما الممدوح فإن السيف رمز للسلطة والقوة والمكانة السياسية، فهو سيف حده الحلم والحد الآخر قاطع صارم، يرهبه الأعداء والمنافسون؛ لأنهم يعلمون قوته وسلطانه السياسي .

وفي الأبيات الأخيرة من هذه القصيدة، الأبيات (٤٤: ٥٣)، يعلن الشاعر خضوعه التام لسلطة الممدوح، ويأمل أن تتحقق آماله وأمنياته فيه بعد أن خابت آماله في محبوبته، ولذلك تحيل لغة الشاعر في هذه الأبيات إلى قوة السلطة الممدوحة في مقابل ضعف الشاعر وخضوعه، ذلك الخضوع الذي يصل إلى حد التذلل، وينعكس ذلك الخضوع على لغة الشاعر في اختياره للمعاني والتراكيب الدالة على الاستسلام لسطوة الحاكم ، فيقول:

إليك أبـيَـاتاً مـن الشِّـعْرِ قُلْتُهَا ... بُـودِّيَ لَـوْ أنـــيِّ لهــنَّ كتـاب
فـإن تَتَـقَـبَّـلْهَـا وتلك مـطَـيـتـي ... فـيـا مَـنْ رأى خطباً ثناه خطاب
ومن يُـثْنِ بـالصُّـنْعِ الجميلِ فإنَّه ... شَـكُـورٌ و لا مـثلَ المزيَدِ ثواب
وهل أنا إلَا عبـدُ أنْـعُـمِـكَ التي ... هـي الأريُ إذ كلُّ المواردِ صَاب
ومـا شهدَ المـجدُ الـذي أنت سرُّه ... فـإنـك بـحـرٌ والكرامُ سَرَاب
وهـا أنـا يا رِضْوَانُ باسمك هاتفٌ ... فـهـل لـي إلى دار المُقَامَةِ باب
وهل يُدْرِكُ الحسَّادُ غَورَكَ في العُلا ... وإن طالَ مَـكْـرٌ منهمُ وخِـلاَب
إذا نافسُوكَ المجدَ كنتَ غضنفراً ... إذا زار لـم تَـثْبُـت عليه ذِئاب
وما احـمـرَّ إلا من صِيالِكَ مَعْرَكٌ ... ولا اخْضَرَّ إلا مـن نَداكَ جَـنَاب

(التطيلي ، 11)

نجد الشاعر في تلك الأبيات يتقرب من ممدوحه بأبيات مدحية ، ويتمنى أن يجود عليه الممدوح بتقبلها ، وفي هذه الأمنية ما يدل علي سلطة الممدوح ، ويتمنى الشاعر ذلك ؛ لأن قبول الأبيات يعني بذل العطايا والمنح من الممدوح للشاعر ، مما يهدئ من أرقه وخوفه من المستقبل المجهول ، لكن الشاعر يبالغ في إظهار خضوعه ، فيستخدم كلمة تدل على ذلك مثل "عبد" في قوله " وما أنا إلا عبد أنعمك " فهذا التحقير للنفس يعد بمثابة اعتراف صريح من الشاعر بسلطة الممدوح ونفوذه.

وفي البيت (رقم ٥٠) ما يدل على استسلام الشاعر لسلطان الممدوح حيث إنه يشبهه برضوان خازن باب الجنة ، ورضاه على الشاعر يعتبر جنة الخلد، كل ذلك يحدد شكل العلاقة بين الشاعر وممدوحه ، فهذه العلاقة قائمة على الاعتراف بسلطة الممدوح والاستسلام لها ، وهذا ما أثبته في البيتين الأخيرين، فالممدوح غضنفر ، لا يقف الأعداء أمامه في المعركة لشجاعته كما أنه كريم الجانب .

يتضح من هذه القصيدة أن الأعمى التطيلي شاعر مداح ، يؤرقه كسب الرزق، ولذلك يبرز عنده المديح التكسبي ، فمعاني الاستجداء ظاهرة عنده بوضوح، وهذا التذلل في طلب العطية من الممدوح بشكل ملح ومهين قد ذكره الشاعر في قصيدة له ، يقول فيها :

وكم من نطفة من ماء وجهي أرقتها بودي لو أني أرقت لها دمي
وما لمت نفسي يوم جئتك مادحا و لكنه من يحرم الله يحرم

(التطيلي ، ١٧٤)

لكن ليس معنى هذا أن الشاعر قد أصبح سلبي السلطة ، وإنما يمتلك السلطة الأدبية ، تلك السلطة التي تجعل الممدوح يخضع شيئا ما لسلطانها ، فكما أن الشاعر في حاجة إلى الممدوح ؛ لينال منه العطايا التي تساعده على الحياة ، فإن الممدوح في حاجة مماثلة للشاعر المداح ، ذلك الشاعر الذي يشبع حاجة الممدوح لملء سمعه بالثناء عليه ، وحاجته لتخليد ذكره ، فإذا كان للممدوح سلطة سياسية فإن الشاعر له سلطة أدبية ، وهذا ما عبر عنه الأعمى التطيلي في قوله :

وأما أنا والحضرمي فإننا قسمنا العلا ما بين غور إلى نجد
فأبت أنا بالشعر أحمي لواءه وآب ابن عيسى بالسيادة والمجد

(التطيلي ، ٣٤)

وبذلك يتحول المدح وفقا للعبة التمويه النسقي أو الأنساق المختالة إلى أسلوب مهادن ، وآلية يخترعها الشاعر لكي يولد في نفس الممدوح إحساسا بالعظمة وشعورا بالتفوق في مجال الكرم والعطاء ، لكن هذا المدح يضمر في طياته عملية مقايضة ، فهذا المدح ينبغي أن يكون له مقابل من الممدوح تجاه الشاعر إما بالثناء عليه قولا أو إسباغ العطايا والمنح المالية عليه ، فإذا لم يقابل هذا المدح بالثناء أو بذل الأعطيات فإن المدح في هذه الحالة يسقط عن الممدوح ، وفي المفهوم الشعري يمكن أن يتخذ سقوط المدح هذا شكلا أقرب إلى أشكال الهجاء من حيث أنه ينفي عن الممدوح كل الآثار الإيجابية للمدح .

فالمديح بذلك يعد تحديا لقوة الممدوح وسلطته ؛ لأن عدم مقابلة المدح بما يليق به يسلب السلطة السياسية / الممدوح كل سلطتها الأخلاقية ، وذلك لعدم مقابلة ذلك التوسل والمدح بما يستحق من كرم العطاء ، وتصبح السلطة السياسية في نظر المجتمع لا ترعى القيم الأخلاقية ، ويصبح الشاعر في حل من الولاء لهذه السلطة ، ومن حقه التحول عنها بمدحه إلى غيرها وهذا يقلل من شأن السلطة السياسية .

النتيجة

ويتضح مما سبق عرضه ما يلي :

١. إن ثنائية سلطة الشاعر والسلطة السياسية ظهرت بوضوح في قصيدة ابن زيدون البائية (مودة وعتاب) ومعارضة الأعمى التطيلي لها ، فالمدح في عصر ملوك الطوائف وعصر المرابطين كان له أكثر من وظيفة :

أولا : تأكيد شرعية السلطة السياسية الممدوحة ، والاعتراف بقوتها .
ثانيا : تأكيد سلطة الشاعر وقوته وولائه السياسي .
ثالثا : تعد وسيلة للحفاظ على الأيديولوجية العربية الإسلامية للحكم في مقابل توسعات المملكة النصرانية في الشمال على حساب الأراضي الإسلامية .

٢. تقسيم قصيدة المدح ما بين مدح الأمير وفخر الشاعر بنفسه يعد دليلا على وقوف الذات الشاعرة في مقابل الذات الحاكمة أو قيام السلطة الأدبية في مواجهة السلطة السياسية ، فالشاعر يرى في نفسه انه لا يقل قوة وأهمية عن الأمير نفسه ، فإذا كان الأمير يمتلك السلطة السياسية ، فغنه يملك السلطة الأدبية ، تلك السلطة التي تمنح الأمير سلطانه السياسي ، وبإمكان الشاعر من خلالها أن يحرمه منها إذا أراد .

٣. المدح يتحول وفقا للعبة التمويه النسقي أو الأنساق المختالة إلى أسلوب مهادن ، وآلية يخترعها الشاعر لكي يولد في نفس الممدوح إحساسا بالعظمة ، وشعورا بالتفوق في مجال الكرم والعطاء ، لكن هذا المدح يضمر في طياته عملية مقايضة ، فهذا المدح ينبغي أن يكون له مقابل من الممدوح تجاه الشاعر إما بالثناء عليه قولا ، أو إسباغ العطايا والمنح المالية عليه ، فإذا لم يقابل هذا المدح بالثناء أو بذل الأعطيات ، فإن المدح في هذه الحالة يسقط عن الممدوح ، وفي المفهوم الشعري يمكن أن يتخذ سقوط المدح هذا شكلا أقرب إلى أشكال الهجاء من حيث أنه ينفي عن الممدوح كل الآثار الإيجابية للمدح .

٤. إن المديح يعد تحديا لقوة الممدوح وسلطته ؛ لأن عدم مقابلة المدح بما يليق به يسلب السلطة السياسية / الممدوح كل سلطتها الأخلاقية ، وذلك لعدم مقابلة ذلك التوسل والمدح بما يستحق من كرم العطاء ، وتصبح السلطة السياسية في نظر المجتمع لا ترعى القيم الأخلاقية ، ويصبح الشاعر في حل من الولاء لهذه السلطة ، ومن حقه التحول عنها بمدحه إلى غيرها وهذا يقلل من شأن السلطة السياسية .

المصادر والمراجع

- ابن بسام . الزخيرة في محاسن أهل الجزيرة . بيروت : دار الثقافة ، ١٤١٧ه / ١٩٩٧م
- ابن خاقان . مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس . ط١ . بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٣ ه /١٩٨٣م
- ابن دحية . المطرب من أشعار أهل المغرب . بيروت : دار العلم للجميع
- ابن زيدون . ديوان ابن زيدون ورسائله . القاهرة : نهضة مصر للطباعة والنشر ، ١٩٥٧م
- ابن منظور . لسان العرب . بيروت : دار صادر ، ١٩٥٦م
- التطيلي ، الأعمى . الديوان . بيروت : دار الثقافة ، ١٩٦٣م
- ستيتكفيتش ، سوزان بينكني . القصيدة والسلطة . الأسطورة/الجنوسة والمراسم في القصيدة العربية الكلاسيكية . ط١ . القاهرة : المركز القومي للترجمة ، ٢٠١٠م
- السرجاني ، راغب . قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط . ط١ . القاهرة : مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة ، ١٤٣٢ه/٢٠١١م
- الصديق ، حسين . الأنساق والسلطة . دراسة في إشكالية العلاقات وأصولها الإشكالية . دمشق : منشورات اتحاد الكتاب العرب ، ٢٠٠١م
- الضبي . بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس . ط١ . القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٤١٠ه/ ١٩٨٩م
- العسكري ، أبو هلال . الفروق اللغوية . بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨١م
- عليمات ، يوسف . جماليات التحليل الثقافي الشعر الجاهلي نموذجا . ط١ . بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ٢٠٠٤م
- عليمات ، يوسف . النسق الثقافي . قراءة في أنساق الشعر العربي القديم . إربد : عالم الكتب الحديثة ، ٢٠٠٩م
- غومس ، إميليو غرسية . الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه . ط٢ . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٦م
- فروخ ، عمر . تاريخ الأدب العربي . عصر المرابطين والموحدين . ط٢ . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٥م
- يوسف ، عبد الفتاح أحمد . " استراتيجيات القراءة في النقد الثقافي . نحو وعي نقدي بقراءة ثقافية للنص ". مجلة عالم الفكر . المجلد ٣٦ . يوليو وسبتمبر (٢٠٠٧م).صـ ٢٧